العـــدد A8 لسنة 2023
No. 8A – March 2023
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 - - Electronic ISSN 2790-1254

المضامين الإيحائية والذاكرة الأسطورية في الشعر الجاهلي

أ.د. عواد كاظم لفته
الباحثة: لينا خالد عبد الواحد
جامعة ذي قار ـ كلية الآداب

ملخص

لقد زخرت الذاكرة الشعرية في العصر الجاهلي بتنوع المخزون الثقافي المكتسب لا سيما الأساطير التي تشمل القصص الخيالية ذات الرموز والإشارات الأسطورية، التي استحضرها الشعراء في أشعارهم، فأفادوا من التراث الأسطوري المكتسب، لما له من دلالات رمزية وبما يمتلك من طاقات إيحائية تعمل على إثراء تجاربهم الشعرية وتعبر عن تطلعاتهم الفكرية، بما ينسجم مع تجاربهم الذاتية والاجتماعية على حد سواء، وقد جاء هذا البحث ليقف عند حدود التضافر بين الفن الشعري والأساطير الإيحائية في قصائد هذا العصر.

الكلمات المفتاحية: الأساطير الدينية، اللاوعي الجمعي، المضامين الإيحائية، الأساطير الاجتماعية، الأساطير الخيالية.

Suggestive Contents and Legendary Memory in Pre-Islamic Poetry

Prof. Dr. Awad Kadhem lefta
Researcher: Lina Khaled Abdel Wahed
Thi Qar University - College of Arts

Summary

The poetic memory in the-Islamic era abounded with the diversity of the acquired cultural stock, especially the myths that include fictional stories with mythical symbols and reference, which the poets evoked in their poems. And expresses their intellectual aspirations, in line with their personal and social experiences alike. This research came to stand at the limits of synergy between poetic art and suggestive myths in the poems of this era.

Keywords: religious myths, collective unconscious, suggestive contents, social myths, imaginary myths.

مقدمة

تعد الأسطورة مصدرًا مهمًا من مصادر التراث لصلتها العميقة بالمعتقدات الخاصة بالطقوس والشعائر البدائية، إذْ أنها ((الجزء الناطق من الشعائر البدائية، الذي نماه الخيال الإنساني ...، هي المادة التراثية التي صيغت في عصور الإنسانية الأولى وعبر بها الإنسان في تلك الظروف الخاصة عن فكره ومشاعره تجاه الوجود، فاختلط فيها الواقع بالخيال. وامتزجت معطيات الحواس والفكر واللاشعور، واتحد فيها الزمان، كما اتحد المكان، واتحدت أنواع الموجودات من إنسان وحيوان ونبات))[1].

إذن الباعث على نشوء الأساطير هي المعتقدات الدينية إذ ان الاساطير تعمل على توضيحها وتثبيتها بما تحتوي من صيغ تساعد على حفظها وعلى تناقلها بين الأجيال، كما تزوده بالجانب الخيالي الذي يربطها بالانفعالات والعواطف الإنسانية[2]، إذْ كان للعرب أساطيرهم الخاصة التي افرزتها البيئة الصحراوية فقد مثلت واقعهم الديني والاجتماعي والثقافي[3] .

وقد ارتبط الشعر والأسطورة بوشائج عميقة فقد ((اجمع نقاد الشعر وعلماء الأساطير كلاهما على أن الشعر في نشأته كان متصلاً بالأسطورة لا بكونها قصة خرافية مسلية، وإنما بوصفها تفسيراً للطبيعة والتاريخ والروح واسرارها، ومعنى تفسيرنا للأساطير هو أن نكتشف فيها رموزاً للأشياء، والأساطير ليست سوى افكار متنكرة في شكل شعري))[4]، ويظهر هنا دور الشاعر بوصفه الفنان الذي ينغمس في أعماق الماضي ويعمل على استعادة صوره وخيالاته ليضمنها في شعره لتطرق أسماع مجتمعه وتمتثل أمام أعينهم ووسائل الشاعر في عملية خلقه متعددة[5]، ((منها الصورة ومنها المفردة التي تستطيع الإيحاء بالمناخ الأسطوري))[6].

وقد شكلت الأسطورة ملمحاً مهماً من ملامح القصيدة الجاهلية، فقد عملت ذاكرة الشعراء على استدرار ما ترسب في اللاشعور الجمعي العربي من أساطير ذات صلة وثيقة في حياتهم الدينية ومحيطهم الاجتماعي الذي انبثقت منه، فاستأثروا استرجاعها وتوظيفها توظيفاً فنياً، يعبر عن رؤيتهم للكون والواقع في الوقت ذاته، كما امتزجت مع مخيلتهم الشعرية تعطي للنص بعداً دلالياً وجمالياً يعمل على أثرائه، لما تحمله من طاقات وحمولات معرفية ترفد التجربة الشعرية.

وعند تتبع النصوص الشعرية الجاهلية وجدنا استدعاء الشعراء للأساطير أخذت صور مختلفة، تتجسد في المضامين الايحائية الدينية والاجتماعية والخيالية التي ابدع الشعراء في تضمينها اشعارهم، إذْ يبوح الشاعر الجاهلي عما يجول في خاطره من مشاعر الغضب والتوجس عن طريق استذكار المضمون الايحائي لأحد الأساطير الدينية:

واذْكُرُوا حِلْفَ ذِي المَجَازِ وما قَـدِّ ... مَ فِيـــــهِ العُهُـــــودُ وَالكُفَـــلاءُ
حَـــذَرَ الجَـــوْرِ والتَّعَـــدِّي وَهلْ يَنْـ ... ـــقُضُ ما فِي المَهارِقِ والأَهْـواءُ
وَاعْلَمُـــــوا أَنَّنَـــــا وإيّـــاكُـــــمُ ... فِيـــ ـمَا اشْتَرَطْنَا يَوْمَ احْتَلَفْنَا سَـــوَاءُ
عَنَنـــاً بَاطِـــلاً وَظُلمـــاً كَمَـــا تُعْـــ ... ـتَرُ عَنْ حُجْـرَةِ الرَّبيضِ الظِّبَـــاءُ [7]

إذ كان من عادت العربي في الجاهلية أن ((ينذر للآلهة بأن يضحي بعض أغنامه في حال تحقق ما يريده، فإذا تحقق بخلت نفسه فيلجأ إلى صيد الظباء ويذبحها بدلا من الأغنام))[8]، حيث اختزنت هذه الاسطورة الدينية في الذاكرة الجمعية العربية واستطاع الشاعر استرجاعها في قوله (كما تعتر عن حجرة الربيض الظباء) بوصفها وسيلة تمكنه من السيطرة على الاحساس بالظلم والجور اتجاه مزاعم الأعداء المجحفة بحق الشاعر وقومه فإن كل ما نسبوه اليهم من اكاذيب وادعاءات زائفة لا صحة لها، إذْ يقول لهم أنكم تأخذوننا بذنوب غيرنا كما الظباء التي تؤخذ بدلاً من الشياه تحقيقاً لرغبة صاحبها، متناسين ما كان بيننا من أحلاف وعهود سابقة، فالأسطورة تشكل بعداً ذاكراتياً واصلاً بين انية الشاعر وما رسخ في ذاكرته من فعل مشابه في الذكرى يستدل بها على زيف الادعاء بوساطة ايحائها الدال على التزييف.

ومن معتقداتهم التي تتصل بحياتهم اليومية وما يكتنفها من نزاعات وحروب مستمرة، والتي تحث على الأخذ بالثأر والتحريض على القتال اسطورة (الهامة أو الصدى) إذ جسدت المعاناة النفسية والانفعال الوجداني:

تَـرَى الشُّـمّ الجَحاجِـحَ مِـــن سُلَـيْمٍ ... يَبُـلّ نَـــدَى مَدامِعهـــا لِحاهـــا
على رَجـلٍ كَرِيـــمِ الخِيـــمِ أضحـــى ... ببَطْنِ حَفِيـرةٍ صَخِـــبٍ صَداهـــا[9]

إذ كان العرب يزعمون أن القتيل الذي لم يؤخذ بثأره، يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة أو الصدى، وسمي بذلك نسبة إلى الصدى أي العطش لأن هذا الطائر لايزال يقول: " اسقوني " حتى يؤخذ بثأره فيرتوي بدم قاتله[10]، حيث هذا المعتقد في أذهانهم وصار قوة ضاغطة على أهل المقتول تذكرهم به من جهة وبالعار الذي سيلحقهم أن تراخوا عن الأخذ بثأره من جهة ثانية، وبدا الايحاء في مضمون الذكرى يحيل على كل من لم يؤخذ بثأره، وان البوم والصدى ايقونة تلك الذكرى ورمز الايحاء لها.

ونجد الشاعر الجاهلي يتخلص من الهموم والمتاعب التي لازمته أثناء قطعه الصحراء المتوهجة على ظهر ناقته باستذكار أحد الأساطير المتوارثة آنذاك:

غَيْرَ أَنِّي قَـدْ أَسْتَعِيـنُ عَلَى الهَـ ـــــمِّ إِذَا خَـفَّ بالثَّـوِيِّ النّجـاءُ
بِزَفُـوفٍ كَأَنَّهـا هِقْلَـةٌ أَمْـ ـــــمَ رِئـالٍ دَوِّيَّـةٌ سَقْفَـاءُ
آنِسَـتْ نَبْـأَةً وَأَفْـزَعَهَـا القُـنْـ ـــــنَاصُ عَصْراً وَقَدْ دَنَا الإِمْسَـاءُ
فَتَرَى خَلْفَهَـا مِنَ الرَّجْعِ وَالـوَقْـ ـــــعِ مَنِينـاً كَأَنَّـهُ إِهْبَـاءُ
أَتَلَهَّـى بِهَـا الهَوَاجِـرَ إِذْ كُـلُّ ـــــلُ ابْنِ هَـمٍّ بَلِيَّـةٌ عَمْيَـاءُ[11]

والبلية ((ناقة الرجل اذا مات عقلت عند قبره مما يلي رأسه، ويعكس رأسها الى ذنبها، ثم تترك دون طعام أو شراب حتى تموت ولذا فهي عمياء لا تتجه لأمرها والهدف المرجو من هذه الناقة أن تكون مطية لصاحبها اذا ما قام من قبره للبعث))[12]، وبذلك أصبحت ذكرى مختزنة في اللاشعور الجمعي العربي توحي بعدم قدرة الناقة على اسعاف صاحبها وكل من مات وعقرت ناقته هو ذكرى اسطورية موحية بدلالة عدم الانتفاع.

ونجد الشاعر الجاهلي يعبر عما يلوح في نفسه من احاسيس الألم ولوعة الفقد بتوظيف المضمون الايحائي للأسطورة في تعريضه بالقتل والاخذ بالثأر:

قَتَلُـوا كُلَيْبـاً ثُـمَّ قَالُـوا أَرْتِعُـوا كَذِبُـوا، وَرَبِّ الحِـلِّ وَالإِحْـرَامِ
حَتَّـى تُلَـفَّ كَتِيبَـةٌ بِكَتِيبَـةٍ وَيَحُـلَّ أَصْـرَامٌ عَلَى أَصْـرَامِ
وَتَقُومَ رَبَّـاتُ الخُـدُورِ حَوَاسِـراً يَمْسَحْنَ عَرْضَ تَمَـائِمِ الأَيْتَـامِ[13]

يتجسد في النص حجم الإنكسار النفسي الذي أعتلى ذات الشاعر وجعله تحت وطأة الحزن والأسى على فقده لأخيه، وهذا الأمر حذا بالشاعر للغوص في أعماق الماضي لإيجاد متنفس له بوساطة استذكاره لأحد الأساطير البدائية الشائعة عند العرب، وهي(التمائم) مفردها التميمة وتعني ((قلادة من سيور تضم خرزاً، وقد تكون من خرزة واحدة تستعمل للصبيان والنساء في الغالب اتقاء النفس والعين. فإذا كبر الطفل، انتزعت التميمة منه))[14]، حيث ظلت هذه العقيدة راسخة في أذهان العرب، ومن ثم استرجعها الشاعر في قوله (يمسحن عرض تمائم الايتام) ليتمكن بوساطتها صب جام غضبه على بني بكر قاسماً لهم بأن يأخذ ثأر أخيه اضعافاً مضاعفة حتى تلتحم الكتائب بالكتائب وحتى يخرجن ربات الخدور متحسرات بعد ترملهن يمسحن بتمائم الأيتام التي أصبحت عاجزة عن وقايتهم لأن المصائب أحاطت بهم من كل جانب، بيد أن البعد التاريخي لميتافيزيقية الأسطورة جعلها موغلة في القدم تتداولها المجتمعات عبر تراتيبية زمنية متوخين فاعلية مضمونها في الوقاية، ويبدو أن الشاعر عول كثيراً على الذاكرة الأسطورية إذ المح إلى عدم الانتفاع منها مذ وجدت إلى لحظة شروعه بالثأر.

بينما يعبر الشاعر الجاهلي عن عمق الاحساس بالقلق والتوتر النفسي، فيرتمي في احضان الماضي عن طريق استذكاره للموروث الأسطوري:

يـا هِنْـدُ لا تَنْكِحِـي بُوهَـةً عليـه عَقِيقَتُـه أَحْسَبَـا
مرَسَّعَـةً بيـنَ أَرْسَـاغِـهِ بـه عَسَـمٌ يَبْتَغِي أَرْنَبَـا
لِيَجْعَـلَ فِي كَفِّـهِ كَعْبَهـا حِـذارَ المنيّـةِ أَنْ يَعْطَبَـا[15]

إذ يفتتح الشاعر قصيدته الشعرية بنداء اخته وحثها على التريث في اختيار من سيكون زوجاً لها، فيستدعي من الموروث أسطورة (كعب الأرنب)، وهي من الأساطير المتداولة في المجتمع العربي وتحيل على أن العرب ((كانوا يعلقون على أجسامهم كعب الأرنب، لاعتقادهم أنه وقاية من السحر، وإن الجن تنفر من الأرنب لأنها تحيض))[16]، فترسب هذا المعتقد الأسطوري في ذاكرتهم الجمعية، وقد تمكن الشاعر من استرجاعه مستثمراً ما في الأسطورة من مضمون ايحائي مترسب في ذاكرة الإنسان الجمعية إذا غدا ذلك الاعتقاد من المفاهيم الحياتية اليومية التي توارثها العرب من ما وراء العقل، وصارت تتحكم بقدرة الرجال على عدم الركون إليها كناية عن رجاحة العقل.

وكما آمن العرب بالجن وما يدور حولهم من اساطير وحكايات متنوعة، بوصفه قوى خفية لها أثرها في مجريات حياتهم، فقد ارتقوا بها إلى مصاف الآلهة، وقد زعموا لكل شاعر شيطان من الجن يلقي الشعر على افواههم[17]، فقد ترفع الشاعر الجاهلي بممدوحه إلى مصاف المخلوقات الغيبية :

إذا فَزِعُـوا طـارُوا إلى مُستَغِيثِهِم ... طِوالَ الرِّماحِ، لا ضِعـافٌ ولا عُـزْلُ
بخيـلٍ عليهـا جِنّـةٌ عبقَرِيَّـةٌ ... جَدِيُرونَ يوماً أن يَنالُوا فَيستعلُمـوا[18]

إذ زعم العرب أن (عبقر) اسم مكان تقطنه الجن فمضوا ينسبون إليه كل أمر عظيم وكل شيء قريب من الكمال[19]، وبذلك ترسخ المعتقد الأسطوري في أذهانهم واستطاع الشاعر استرجاعه ليشيد بقوة هؤلاء القوم فهم يهرعون إلى مستغيثيهم برماحهم الطويلة كأجسادهم، وهم جديرون بالنصر لأنهم على غرار جن عبقر بالقوة والشجاعة، ذلك أن الخوارق التي تمثلت في وادي عبقر وما يتصل به تجعل من الفواعل غير الانسية ظهوراً تاريخياً ماضياً ومغايراً لظهور، الفواعل الانسية، وكان الايحاء المضموني للأسطورة يحيل على تحول اصاب الفواعل في زمن ما، فكانت الفواعل الانسية ممسوخة عن فواعل غير أُنسية بيد أن بعضها ظل محافظاً على امكانية العودة إلى ظهوره غير الأنسي انى احتاج ذلك، فكان (هرم بن سنان والحارث بن عوف) من تلك الفواعل التي تمتلك الخصلتين، وفي هاتيك القدرة على العودة إلى الظهور غير الأنسي تتجسد بنية الذكرى على انها هيئة وجودية قبل الهيئة الأنسية.

وقد نحى الشاعر الجاهلي منحى التوسل في الظواهر الفلكية وما يتصل بها من أساطير وذلك في معرض فخره بقوة قومه وشراستهم في مواجهة الأعداء:

غَـــدَاةَ كَأَنّنَـــا وَبَنِـــي أَبِينَـــا ... بِجَنْبِ عُنَيْـــزَةَ رَحْيَـــا مُدِيـــرِ
كَـــأَنَّ الْجَـــدْيَ بَنَـــاتِ نَعْـــشٍ ... يَكُبُّ عَلَى اليَدَيْـــنِ بِمُسْتَدِيـــرِ
وَتَخْبُـــو الشَّعْرَيَـــانِ إِلَى سُهَيْـــلٍ ... يَلُوحُ كَقَمَّـــةِ الجَبَـــلِ الكَبِيـــرِ[20]

يحاول الشاعر أن يحدث توازن ما بين قوة قومه وقوة الأعداء، فكلا الفريقين يمتاز بالشجاعة وشدة البأس في أرض المعركة، وهذا دعاه أن يتجه إلى المتوارث من الاساطير العربية القديمة مستدعياً اسطورة (النجوم) والتي تتحدث عن أن الشعريين أي (الشعرى اليمانية والشعرى الشامية) اقبلتا من جهة الشام، أما سهيل فأقبل من جهة اليمن حتى انتهى بهم المسير إلى المجرة فتوقفوا عند شاطئها، فخطبهما سهيل فوافقتا، لكن الشعرى اليمانية تمكنت من العبور أما الشعرى الشامية فلم تقوَ على ذلك فأخذت تجهش بالبكاء حتى عجزت عن فتح عينيها مرة أُخرى[21]، وهذا المعتقد اختزن في اللاوعي الجمعي العربي، لكن الشاعر تمكن من استرجاعه (وتخبوا الشعريان إلى سهيل) ليصور بوساطته عنف تلك المعركة وما جرى فيها من أحداث داميه، كما إنَّ اتساع المعركة وشدة عنفوانها وصولاً إلى الانتصار يعادل عبور المجرة لقوة الخصم، فكان الايحاء المضموني للأسطورة يحيل على أنها وقعت في زمن غابر جداً، فظلت تتداول على أنها ذكرى فضاؤها السماء.

وكما أثنى الشاعر الجاهلي على ممدوحه بالوفاء بما في ذمته بوساطة استدعاء الأسطورة واستثمار ايحاءها:

أمـا ابنُ طَـوقٍ فقد أوفى بذِمَّتِـه ... كما وفى بِقلاصِ النّجمِ حادِيها
قـد حلَّ رابيةَ لـــم يعلُهـا أحَـــدٌ ... صَعباً مباءَتُها صعبـاً مَراقيهـا[22]

وفي الأسطورة العربية ((إنّ الدبران خطب الثريا، وأراد القمر أن يزوجه بها، فأبت عليه، وولت عنه، وقالت للقمر: ما اصنع بهذا السبروت الذي لا مال له، فجمع الدبران قلاصه يتمول بها، فهو يتبعها حيث توجهت، يسوق صداقة قدامها))[23]، غير ان (العيوق) عاق الدبران عن لقاء الثريا[24]، وهذا المعتقد الأسطوري اختزن في اللاوعي الجمعي العربي رمزاً للوفاء وتمكن الشاعر من استرجاعه (كما وفى بقلاص النجم حاديها)، ليصور معاني الوفاء لدى ابن طوق، لما وفى ما في ذمته على الرغم من صعوبة هذا الوفاء، فكان الاعتقاد الأسطوري لزواج الدبران من الثريا ثيمة اخبارية تفكك تساؤلات

الانسان عما وراء العقل وحوله من ظواهر ويشكل الاخبار حادثة وقعت في أول التكوين والخلق مما جعلها استذكار لماهية التكوين وكيفيته، ومن ثم ذكرى عالقة في وعي الإنسان الجمعي.

وقد استدعى الشاعر الجاهلي من اصحاب الديانات السماوية الفكر الأسطوري في بيان قدرة الله سبحانه وتعالى والحث على عبادته:

والشمس تطلـــع كل آخـــر ليلـــةٍ حمراءَ يصبح لونهـــا يتـــوردُ
تأبى فلا تبـــدو لنـــا في رسلهـــا إلاّ معذبـــــــــة وإلاّ تُجلَـــــــدُ
لا تستطيـــع أن تقصـــرَ ساعـــة وبذاك تدأبُ يومها وتشـــرَّدُ[25]

إذ زعم عرب الجاهلية أن الشمس ((لا تطلع من تلقاء نفسها، حتى تعذبها الملائكة، وترغمها على الظهور صباح كل يوم، أي ان الشمس لا تطلع إلا وهي كارهة)[26]، وقالت: ((لا اطلع على قوم يعبدونني من دون الله، حتى تدفع وتجلد فتطلع))[27]، فقد نسج هذا المفهوم الأسطوري في أذهانهم واستطاع الشاعر من استرجاعه للفت انتباه المتلقي وشد ذهنه للتفكر بعظمة الخالق سبحانه وتعالى وقدرته على تسيير كل ما في الكون طوع أمره، مما جعل اشراق الشمس كل صباح مضموناً اسطورياً موحياً بكراهة ظهورها من جهة، واحمرارها بفعل التعذيب والجلد من جهة اخرى، وهاتيك الذكرى تتداول وجودياً كل يوم، فطلوع الشمس تذكيرٌ بانو جادها من العذاب وغروبها تذكيرٌ على الانهزام والشرود من العذاب.

وينقل لنا الشاعر الجاهلي معاناته النفسية وما كابده من هموم والام عندما استشعر غضب السلطة الذي سيعصف به:

فبـــت كـــأن ساورتنـــي ضئيلـــة من الرقش في انيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمهـــا لحلـــي النســـاء في يديـــه قعاقـــع[28]

إذ تحكي الأسطورة أنه من الخرافات الشائعة عند العرب في الجاهلية((أنهم كانوا يعلقون الحلى والجلاجل على اللديغ، زاعمين أنه يفيق، وذلك لأنهم أرادوا شغله بصلصالها حتى لا ينام فيسري السم فيهلك))[29]، وبذلك رسخ هذا الفكر الأسطوري في أذهانهم، واستطاع الشاعر بما يمتلك من مخيلة شعرية واسعة استرجاعها كوسيلة تمكنه من بلوغ هدفه وهو استدرار عطف الملك والحصول على عفوه ورضاه، فكان الايحاء الأسطوري يرغم المتلقي على استذكاء أسطورة (اللديغ) بوصفها من ذكريات اللديغ ومن يهم بسلامته، فكما عن للعربي سهر استذكر ارغامهم للديغ على عدم النوم بغية الاستشفاء.

ويصور لنا الشاعر الجاهلي ما واجهه من تشتت وضياع عند غدوه في صبيحة أحد الأيام، عندما هاجته الظباء السنيح والبارح:

طَرِبْـــتَ وَهاجَتْـــكَ الظِّبَـــاءُ السَّوانِـــحُ غَـــداةَ غَـــدا مِنْهـــا سَنيـــحٌ وبـــارِحُ
فَمالَـــــتْ بِـــيَ الأَهْـــواءُ حَتَّى كأَنَّمـــا بِزَنْدَيْنِ في قَلْبي مِنَ الوَجْـدِ قـــادِحُ[30]

يشير مدلول النص إلى حالة من التوتر والقلق التي لازمت ذات الشاعر ودعته يترقب مصيره المجهول عن طريق استثمار المعنى الايحائي لأسطورة (السنيح والبارح)، والسنيح هو ما مر من وحش وطير عن يمين الناظر، أما البارح فهو ما مر عن يساره، وكان العرب إذا أرادوا الخروج لأمر ما ينتظرون إلى أن يمر بهم وحش أو طير، فإذا مر من جهة اليمين تفاءلوا أما إذا مر من جهة اليسار تشاءموا[31]،حيث ترسخت هذه الأسطورة في ذاكرتهم وأصبحت جزءا من حياتهم، تحيل على ما كان واقعاً في وجودهم من تفاؤل وتشاؤم، إذ توحي المضامين الأسطورية بانها شققت عن حوادث وقعت أو تخيلت مما يعني انها احداث لها فواعلها وأزمانها وامكنة وقوعها وكل من كان مشاركاً بتلك الأسطورة فهو جزء منها ومن الذكرى التي رشحت إلى المتلقي الجمعي لها.

ويستدعي الشاعر الجاهلي الأساطير التي تحيل على تاريخ الإنسان في الجاهلية وخوارق الامور:

واستخبري قافل الركبـــان وانتظـــري أوب المسافر إن ريثـــا وإن سرعـــا

كوني كمثل التي إذ غـــاب وافدهـــا ... أهدت لـــــه من بعيـــد نظـــرة جزعـــا
وقلبـــت مقلـــــة ليســـت بمقـــرفـــــة ... إنسان عين ومؤقا لـــم يكـــن قمعـــا
قالـت أرى رجـــــلا في كفـــــه كتـــف ... أو يخصف النعل لهفي آية صنعـــا
فكذبوهـــــا بمـــــا قالـــت فصبحهـــم ... ذوال حسان يزجي المـــوت والشرعـا
فاستنزلـــوا أهـــل جـــــو مساكنهـــم ... وهدموا شخاص البنيـــان فاتضعـــا[32]

تحيل الأسطورة على قصة تاريخية وان زرقاء اليمامة كانت ترى على بعد مسيرة ثلاث ولكن قومها كذبها، فحل الخراب بديارهم فصار فناء طسم وجديس حدثاً تأريخياً يروى للاعتبار، فهو أرثٌ تاريخي اسطوري ذو مضمون ايحائي يرمز إلى واقعة التغافل عن النصح فكانت زرقاء اليمامة فاعلاً اسطورياً في أحداث الفناء على يد حمير.

ويظل الشاعر الجاهلي يدور في فلك الأساطير القديمة، ولاسيما عندما يعقد موازنة بين ذاته وما ورد في الأسطورة من مضامين:

أسائِلِهـــا، وَقَـــدْ سَفَحَـــتْ دُمـــوعي ... كـــأنّ مفيضَهُنَّ غـُـروبُ شَـــنّ
بُكـــاءَ حَمامَـــةٍ، تَـدعـــو هَديـــلاً، ... مُفَجَّعَـــةٍ، عَلى فَنَـــنٍ تُغَنّـــيْ[33]

يلف اسطورة (الهديل) بعدٌ تأريخي رسخ في ذاكرة الاقوام الجمعية يحيل على زمن نوح (ع)، وتماهي مضمون الأسطورة القائمة على الفقد والبكاء بالتأريخ الغابر جعل منها تذكيراً لحدث ما، فضلاً عن تكرار الفاعل لفعل النداء والبكاء من زمن نوح (ع) إلى زمن الشاعر جعل الحدث يتداول زمانياً على أنه ذكرى اسطورية.

ومما كان لصيقاً بالوعي الجمعي أسطورة العمر المديد التي كان بطلها لقمان بن عاد:

لَا تَهْزَئِـــي مِنّـــي زُنَيْـــبُ فَمَـــا ... فِي ذَاكَ مِـــن عَجَبٍ وَلَا سُخْـــرِ
أَوَلَـــمْ تَـــرَيْ لُقْمَـــانَ أَهْلَكَـــهُ ... مَا اقْتَاتَ مِنْ سَنَةٍ وَمِنْ شَهْـــرِ
وَبَقَـاءُ نَسْـــرٍ كُلّمَـــا انْقَرَضَـتْ ... أَيَّامُـــهُ عَـــادَتْ إِلى نَسْـــرِ
مَا طَـــالَ مِـنْ أَمَـدٍ عَلَى لُبَـــدٍ ... رَجَعَـــتْ مَحُورَتُـــهُ إِلى قَصْـــرِ
وَلَقَـــدْ حَلَبْتُ الدَّهْـــرَ أَشْطُـــرَهُ ... وَعَلِمْتُ مَـــا اتِي مِـــنَ الأَمْـــرِ[34]

ولبد آخر نسور لقمان بن عاد، تقول الاسطورة ((طلب لقمان من ربه أن يكون عمره عمر سبعة نسور كلما هلك واحد، قام آخر. وأعطى المراد، ولما صار في اخريات عمره، وأشرف على الموت، وأراد أن ينهض فلم يقدر.. ولم يكن قبل ذلك يشعر بضعف في بدنه. فنظر إلى آخر نسوره وهو (لبد) فوجده لا يقدر على الطيران، فأخذه ورمى به ليعلوا ويطير، ولكنه سقط وتطاير ريشه، وعندها آمن لقمان بالموت الأكيد، فطلب إلى قومه أن يحفروا له ضريحاً ويواروه فيه. بعد أن يئس من إمكانية طيران نسره الأخير))[35]، فكان لقمان ونسوره السبعة فواعل الأسطورة وشخصيات قصتها، وغدت تلك الشخصية رمزاً لرغبات العيش الطويل والالتذاذ بالدنيا، وايحاءً بالنهاية وان طال الزمن، فكان الجاهلي كما تمنى ان يعمر طويلاً تراءت له النهاية والفناء في شخصية لقمان بن عاد، وغدت القصة الأسطورية ذاكرة موحية بوقوع الفناء مهما طال الزمن.

وقد استذكر الشاعر الجاهلي الموروث الأسطوري والمتمثل بـ (عطر منشم)، في أبيات خصصها لهجاء عمرو بن المنذر بن عبدان، أحد أبناء عمومته بعد أن وصل الحال بينهم إلى القطيعة، اثر إتهام قائد الأعشى بسرقة راحلة رجلٍ من قيس عيلان كان يقيم بجوار عمرو فأسرها الأعشى في نفسه[36]، وقد تولد لديه الاحساس بالألم والاسى بسبب التنافر المقيت:

أَرَانِي وَعَمْـــرًوا بَيْنَنَـــا دَقُّ مَنْشِـــمٍ ... فَلَـــمْ يَبْـــقَ إِلّا أَنْ أَجَـــنَّ وَيَكْلَبَـــا
كِلَانَـــا يُرَائِي أَنَّـــهُ غَيْـــرُ ظَالِـــمٍ ... فَأَعْزَبْتُ حِلْمِي أَوْ هُوَ اليَوْمَ أَعْزَبَا
وَمَنْ يُطِعِ الوَاشِينَ لَا يَتْرُكُوا لَـــهُ ... صَدِيقاً وَإِنْ كَـــانَ الحَبِيبَ المُقَرَّبَـــا[37]

ومنشِم (اسم امرأة عطارة بمكة، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها، وإذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم)[38]، وقيل أيضاً إنهم (كانوا إذا أرادوا الحرب غمسوا أيديهم في طيبها وتحالفوا أن يستميتوا في الحرب ولا يولوا. فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول الناس: دقوا بينهم عطر منشم . فلما كثر هذا القول صار مثلاً للشر العظيم)[39]، إن المضمون المعنوي للأسطورة يحيل على وقوع الموت والفراق بين الطرفين فكانت الأسطورة تحوزها (منشم) وفضاء (مكة) وقبائل (خزاعة وجرهم) مما جعلهم فواعل في الأسطورة يتمسرحون في فضاء مكة ويؤطرهم زمن الحرب التي وقعت بين القبائل ومما لاشك فيه ان ذلك متن اخباري يتداوله المتخاصمون على أنه من ذكريات الأيام والحروب.

الخاتمة

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها البحث :

مما تقدم نلحظ تنوع ذكريات الشعراء الجاهليين عن طريق توظيف الموروث الشعبي حول الأساطير والخرافات ذات الصلة بالمعتقدات والطقوس الدينية، والأساطير الاجتماعية ذات الصلة بعادات وتقاليد المجتمع الجاهلي والأساطير الخيالية التي نسجها الفكر الجاهلي والتي كانت حصيلة التراكمات المعرفية في الذاكرة الجمعية على مدار ازمنة بعيدة، إذ استدعاها الشعراء لا شعورياً بحسب ما تقتضيه الحاجة الفردية والاجتماعية للتعبير عن الدلالة النفسية.

الهوامش

(1) الأسطورة في الشعر العربي الحديث، د. أنس داود: 12.
(2) ينظر: الأسطورة والمعنى، فراس السواح: 24.
(3) ينظر: الأساطير العربية قبل الإسلام، د. محمد عبد المعيد خان: 17.
(4) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د. علي عشري زايد: 174.
(5) ينظر: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام: أحمد اسماعيل النعيمي: 271.
(6) دير الملاك، د. محسن اطميش: 140.
(7) ديوان الحارث بن حلزة: 95- 96.
(8) الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، د. يوسف حلاوي: 118 .
(9) ديوان الخنساء: 115- 116.
(10) ينظر : الأسطورة في الشعر العربي المعاصر:85.
(11) ديوان الحارث بن حلزة.
(12) الأسطورة في الشعر العربي المعاصر: 117.
(13) ديوان مهلهل بن ربيعة: 77.
(14) المفصل في تاريخ العرب، د. جواد علي: 749/6.
(15) ديوان امرئ القيس: 128.
(16) الأسطورة عند العرب في الجاهلية: 77.
(17) ينظر: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام: 74- 75.
(18) ديوان زهير بن أبي سلمى: 84.
(19) ينظر : الأسطورة في الشعر العربي المعاصر: 76.
(20) ديوان مهلهل بن ربيعة : 42.

(21) الأسطورة في الشعر العربي: 93.
(22) ديوان الطفيل الغنوي
(23) محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني: مج2/ 541.
(24) ينظر: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام: 190.
(25) ديوان امية بن أبي الصلت: 25.
(26) الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام: 184.
(27) الشعر والشعراء: 460.
(28) ديوان النابغة الذبياني: 80.
(29) الأسطورة عند العرب في الجاهلية: 76.
(30) شرح ديوان عنترة: 44.
(31) ينظر الأسطورة في الشعر العربي المعاصر: 89.
(32) ديوان الأعشى: 139.
(33) ديوان النابغة الذبياني: 122.
(34) ينظر ديوان ذي الأصبع العدواني: 40- 41.
(35) ينظر: دراسات في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي: 188.
(36) ينظر : م. ن: 198.
(37) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس: 198.
(38) المنتقى من أمثال العرب: 30.
(39) زهر الأكم في الأمثال والحكم:3/ 241.

المصادر

- الأساطير العربية قبل الإسلام، د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة الجنة للتأليف والترجمة والنشر، 1937م.
- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د. علي عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1417ه- 1997م.
- الأسطورة عند العرب في الجاهلية، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1418ه- 1998م.
- الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، د. يوسف حلاوي، دار الآداب، 1994، ط1.
- الأسطورة في الشعر العربي الحديث، د. أنس داود، مكتبة عين الشمس، دار الجيل للطباعة، الفجالة.
- الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام: أحمد اسماعيل النعيمي، دار سينا للنشر، القاهرة، 1995م، ط1.
- الأسطورة والمعنى، فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، 2001، ط2.
- دراسات في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، جامعة بغداد.
- دير الملاك، د. محسن اطميش، دار الرشيد للنشر، العراق، سلسلة دراسات 301، 1982م.

- ديوان امرؤ القيس، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط5.
- ديوان امية بن أبي الصلت، المكتبة الأهلية، بيروت، 1352ه- 1935م، ط1.
- ديوان الحارث بن حلزة اليشكري، مروان العطية، دار الأمامة النووي، دار الهجرة، دمشق، 1415ه-1994م.
- ديوان الخنساء، دار المعرفة، بيروت- لبنان، 1425ه- 2004م، ط2.
- ديوان ذي الأصبع العدواني، مطبعة الجمهور، الموصل، تحقيق: عبد الوهاب محمد علي العدواني و محمد نائف الدليمي، 1393ه- 1973م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت- لبنان، 1462ه- 2005م.
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، د. محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.
- ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح: طلال حرب، الدار العالمية.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: كرم البتاني، دار صادر، دار بيروت، بيروت، 1383ه- 1963م.
- ديوان الطفيل الغنوي، تحقيق: حسان فلاح اوغلي، دار صادر، بيروت، 1997م، ط1.
- محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج3.
- زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن اليوسي، تحقيق: محمد حجي و محمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، 1981م، ط1، ج3.
- الشعر والشعراء، أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، دار احياء العلوم ، بيروت، 1407ه- 1987م، ط3.
- شرح ديوان عنترة، الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1412ه- 1992م، ط1.
- المفصل في تاريخ العرب، د. جواد علي، جامعة بغداد، 1413ه- 1993م، ط2، ج6.
- المنتقى من أمثال العرب وقصصهم، سليمان بن صالح الخراشي، دار القاسم للنشر والتوزيع، 1428ه-2007م، ط1.